الجزء الثالث

الفصل العاشر

إنها لا تنام وهي تفكر في هذه الحياة التي يحياها الإنسان.. وعينا جهاد تطلّ عليها في صحوها وأحلامها..

إنها لا تستطيع أن تبث أحدا شجنها.. فرجاء هي الوحيدة التي تنطلق معها سلمى في الحديث ومع ذلك فلم تكن لتصارحها بشؤون قلبها لا لأنها لا تثق بها، ولكن لأن رجاء أصغر من أن تفهم الأحاسيس التي تهز كيان سلمى.. فأكبت على أوراقها تنقل إليها ثورتها..

لم تشعر يوما بمثل ذلك التوهج الذي سيطر على تفكيرها.. لكأنما أوكل إليها تنظيم هذا العالم الشقي من جديد.. وكأنما هي الوحيدة في معركة ضارية ضد قوى الشر جميعا.. كانت تؤمن حتى الآن بوحدة الوجود.. وبأن الإنسان هو الإله شاعرا بذاته.. وكثيرا ما دمعت عيناها بعاطفة الحب لجميع الكائنات.. وأحست بأن قلبها يسع جميع البشر من أخيار وأشرار.. بل إنها رفضت أن تؤمن بوجود شر في طبيعة الإنسان، فإن وجد فبسبب الظروف القاسية الظالمة، ورفضت فكرة الثواب والعقاب..

ووجدت نفسها الآن تفكر: كيف يمكن للإله أن يأكل بعضه بعضا؟.

سألتها رجاء ذات يوم وقد لمحت شرودها الطويل:

- ما بك يا سلمى؟.

ورفعت سلمى رأسها وقالت:

- أفكر بالسلام.. أية مصلحة للشعوب في الحرب؟.. إن الشعوب عائلات مثلنا فأية مصلحة للعائلات أن تخرب بيوتها؟..

وأشرق وجه رجاء بالحماس والإعجاب ولمعت عيناها السوداوان الـنجلاوان واستدارتا تهيؤا للإصغاء.. وأردفت سلمى:

- ألا يستحق السلام أنْ يُسعى اليه وينفق من أجله كما يسعى وينفق من أجل الحرب؟.. إنني أفكر بأنه لا يمكن إلاّ أن يكون السلام هو حلم الناس بأجمعهم، صلاتهم الحارة التي تنبع من أغوار قلوبهم.. لا يمكن إلا أن يكون الناس يفكرون هكذا لو تركوا لمشاعرهم المخلصة، فلمصلحة من تُثار هذه المجازر على مر القرون؟..

وبقيت رجاء صامتة تفكر وهي تحك رقبتها.. وعادت سلمى إلى شرودها..

* * *

عاد أديب بعد أن أمضى فترة في زيارة سوريا.. وكانت سلمى تنظف المنزل وقد انتهت من غسل بلاط الدار ومسحه.. ووقفت أمام الصنبور تغسل وجهها ويديها.. ولم تلبث أن

سمعت صوت أديب وهتاف أمها فرحا بعودته سالما.. فقفزت سلمى إليه وقد أحست بأن عبئا ثقيلا ينزاح عن كاهلها.. وضمته إلى صدرها وقبلته ثم وقفت تتأمله فرحة وهي تمسح وجهها البليل بيديها :

- لقد أصبحت جميلا يا أديب!..

وكان حقا يبدو أجمل منه في كل وقت مضى وقد تلوح وجهه باللون البرونزي، وازداد وزنه من حياة الخلاء، وبدا أطول من عادته بارتدائه البزة العسكرية..

وتبعتها رجاء ووقفت على مقربة من سلمى، وأخذت تبعث بالقبل على أطراف أصابعها..

كانوا جميعا واقفين أمام باب المطبخ قريبا من الباب الخارجي فانتقلوا إلى ساحة الدار ونقلت سلمى عينيها بالآثار الموحلة التي تركها حذاء أديب على البلاط النظيف ثم جاءت بممسحة ونظفتها من جديد..

وحين خلت سلمى إلى أخيها حدثته كيف كانت لا تنام منذ استلمت رسالته ورسالة صديقه جواد وأخبرها بدوره أن المشرف عليهم منعهما من الالتحاق بأية فرقة لأنهما ليسا مدربين ولأنه أخذ على عهدته أن يعيدهم جميعا إلى ذويهم.. وطمنهم أن الجيوش النظامية العربية لن تلبث أن تحتل فلسطين!..

وعندما التأم شمل العائلة عند المغرب، حدثهم أديب أنه زار أقاربهم في سوريا وأنهم أبدوا رغبة في استضافتهم ريثما تنجلي الغمة عن فلسطين.. وكان أديب متحمسا للسفر.. فأشرق قلب سلمى.. إن سوريا تطلق إمكانياتها.. إنها هناك تذيع قصصها ويمكنها بما تربحه أن تدفع الرسوم لإيواء أختها في مصح في لبنان..

وأخذت العائلة تتشاور في الأمر في فسحة الدار الصغيرة.. وكانت ليلة مقمرة.. وقد جلس بعضهم على الدرجات السفلى من سلم السطح والبعض الآخر على درجة غرفة رجاء بينما أطلت رجاء من نافذة غرفتها لتستمع إلى الحديث وهي مرتاحة في سريرها..

لم تكن الأم مرتاحة للسفر فهي تخشى أن يتفرق شمل العائلة، وهي تخشى أن تلقى هوانا في منزل هي وأولادها عالة فيه على الغير وكانت لا تفتأ تقول:

نُكرم يوما ويومين وثلاثة وثم!.. إنني أعرف كيف ينتهي الأمر.. وهذه المجاملة لا تعني شيئا جديا.. وإذا طال بنا الأمر؟..

وكان الأب يدافع عن أهله بقوله:

- إنهم أهلنا فإذا لم يحملونا في وقت الضيق فمتى يكون ذلك؟

وكان عبد الرحمن مترددا فهو لا يريد أن يترك خطيبته، ولا يدري كيف يدبر شؤون العائلة وقد نفذ ما معه إلا من بضعة جنيهات تكفي إذا ما بيعت البندقيتان لسد نفقات السفر، ولدفع قسط عن شهر واحد لرجاء في أحد المصحات..

وأخيرا انتصرت دوافع السفر على دواعي البقاء من أجل صحة رجاء، وتقرر أن يبقى عبد الرحمن ليبحث له عن عمل يمكنه أن يساعد به العائلة، ريثما يوفق أديب و سلمى إلـى مـا يمكنهما من الإعتماد على نفسيهما في تأمين معيشة مستقلة للجميع.. وتقرر أيـضا أن يبقـى الوالد برفقة عبد الرحمن ليرعى شؤونه البيتية..

وأعدوا عدتهم للسفر ورافقهم عبد الرحمن على أن يوصلهم إلى سوريا ويؤمن إقامة رجاء في مصح ثم يعود.. كانت الهدنة قد أعلنت وانقطع قبول سوريا للاجئين جدد ولكن العائلة استطاعت المرور بجواز سوري قديم كان الوالد يحتفظ به، ولم يفرط فيه بالرغم من مخالفته بهذا العمل للقانون..

* * *

الرسائل

حبيبتي سلمى

قرأ الدكتور فضل قصتك "حمامة السلام" وقال:

- إن أختك متحمسة جدا.. إنها مثالية..

ولقد ظننته يمدحك ولكنه أردف:

- أعني بالمثالية معناها الصحيح لا المحرف.. أي أنها تبني عالما يبـدو جمـيلا ولكنـه لا يتحقق وبالتالي لا يمكن أن يستفيد منه الإنسان وهو مضيعة للجهد والتفكيـر.. إنهـا تقـيس الأمور بطيبة وسذاجة ولا تضع في حسابها ذوي المصالح الذين لا يتورعون عن شن حـرب ذرية تدمر العالم لتبقى الأوضاع فوضى فيستفيدوا منها.. إن هـؤلاء لا يمكـن أن تـردعهم مبادئ توضع على الورق..

وصمت لحظة ثم أردف وهو يتنهد:

- لا يمكن للسلام يا رجاء أن يتم دون ثورة الشعوب، ولا يمكن للثورة أن تتم بسلام.. أمـا ذوو الأفكار الإصلاحية الحالمة فكثيرا ما ينتهي بهم المطاف إلى أحـد طـريقين: اليـأس أو الانتهاز وهذا ما أخشاه على أختك..

- إنني أنقل إليك هذا الحديث يا أختي بأمانة بالرغم أنني لم أفهم ما يعني تماما ولم أفهم مـا يريد بكلمة الانتهاز، ولم أسأله حتى لا أبدو جاهلة.. ومع ذلك فإنني أحس في أعماقي بأن مـا كتبته شيئا رائعا فلا تبالي كثيرا بقوله ولا تدعيه يثبط عزيمتك.. إنه إنسان متشائم بالرغم أنه شريف وتعاسته تملي عليه كثيرا من آرائه..

رجاء